الباب الخامس

الطب الشعبى

مقـــدمة :

الفصل الاول : الطب الشعبى فى التراث العالمى

الفصل الثانى : فلسفة الطب الشعبى

الفصل الثالث : الوصفات الجمالية والوقائية

الفصل الرابع : الوصفات العلاجية

الفصل الخامس : ممارس الطب الشعبى

الفصل السادس : دليل مختصر للدراسة الميدانية للطب الشعبى

الباب الخامس

الطب الشعبى

مقـــــدمة

ترتكز الممارسات والمعتقدات الطبية الشعبية عند كافة الشعوب فى جميع العصور على معتقد أساسى يرى أن الله قد خلق لكل داء دواء ، وأن ما على الانسان الا أن ينهج الطريق السليم للبحث عن هذا الدواء • وتتباين الناس فقط فى مدى ما تصـــيبه من حظ ونجاح فى العثـــور على الدواء المناسب • لا يختلف فى ذلك أقدم الشعوب البدائية مع الطبقات الشعبية فى أى مجتمع حديث اليوم •

ولما كانت الممارسات الطبية الشعبية ترتكز فى جانب كبير منها على أسلوب المحاولة والخطأ، فمن الطبيعى أن يتقن الشعب على مدار العصور وبدرجة متزايدة طرق العلاج الشعبى ، لذلك كان من البديهى أن تؤكد البحوث الطبية الحديثة بعض الوصفات ــ أو على الاقل الاتجاهات العامة ــ للطب الشعبى عند الشعوب المختلفة • ومع أنه من الانصاف للعقليـــة الشعبية أن نثبت هذه الملاحظة فى مطلع حديثنا عن الطب الشعبى ، الا أننا يجب ألا نسمح لانفسنا مع ذلك أن نشغل تفكيرنا بهذه القضية أكثر من هذا • لاننا كما قلنا فى هذا الكتاب فى أكثر من موضع لسنا بصدد تقييم للمعتقدات الشعبية ، طبية كانت أو غير طبية • وانما نحن نحـــاول أن نلتمس الطريق العلمى السليم لدراسة هذه المعتقدات عن طريق جمعهـــا جمعا سليما وتصنيفها وتحليلها • أما أمر تقويمها فمتروك لاهل السياسة الاجتماعية ليفيدوا بهذه النتائج حسب وجهتهم فى رسم تلك السياسة ، وتصورهم لموقع التراث الشعبى على الخريطة الايديولوجية للمجتمع •

ولقد حرصت على أن أؤكد هذه النقطة لاننا لا نكاد نعثر على دراسة للطب الشعبى فى بلادنا أو فى أوربا ، الا ويشغل صاحبها نفسه — فى جزء منها على الاقل ، باثبات حكمة الشعب وصواب كثير من الوصفات الطبية الشعبية المتداولة بين الناس ، أو التى كانت شائعة فى فترة من فترات التاريخ(١) • ولعل هذا الشغف من جانب أولئك النفر من الباحثين يخفى وراءه ميولا رومانسية فى النظر الى التراث الشعبى ، وهى فى رأيى عرض من أعراض المراهقة الفكرية فى علم الفولكلور يجب أن نتجاوزه خاصة عندما نكون بصدد تأصيل الدراسة العلمية لتراثنا الشعبى •

واذا كان لهذه النقطة أن تلقى حظها الواجب من البحث ، فلا يصح أن يتم ذلك على يد دارس الفولكلور ، وانما هى مهمة مؤرخ الطب ، أو المتخصص فى هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة الطبية • فهى اذن مهمة الاطباء وليست رسالة الباحثين فى علم الفولكلور •

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Funk and Wagnalls Standard Dictionary of Folklore; Mythology and Legend; Vol. I; ed. by M. Leach; New York; 1949; p. 698.

وانظر كذلك عبد الرحمن اسماعيل ، طب الركة .

الفصل الأول

الطب الشعبى فى التراث العالمى

لقد حرص الباحثون فى علم الفولكلور على تأكيد الوصفات العلاجية ذات الطبيعة السحرية ، أى تلك التى ترتكز على استخدام التعاويذ ، والاحجبة ، والرقى المختلفة والممارسات السحرية بأنواعها • والتمسوا لذلك آلاف الشواهد فى الثقافات البدائية المعاصرة ، وكذلك فى الحضارات التاريخية منذ الآشوريين والبابليين ، والسومرين وغيرهم • ودعم ذلك الاتجاه لدى البعض استمرار الاعتقاد فى الوصفات السحرية العلاجية فى أوربا حتى مطالع العصور الحديثة •

ولا شك أن الغرابة والطرافة الموجودة فى هذه الوصفات ذات الاسلوب السحرى كان من العوامل البارزة وراء الاهتمام الواسع بها على حساب النوع الآخر من الوصفات ذات الاسلوب الطبى التقليدى والذى يمكن وصفه بأنه أسلوب علمى ، وان كان متخلفا عن المستوى العلمى للطب فى عالم اليوم • وقد جنى الباحثون نتيجة لذلك على كثير من الوصفات والممارسات الطبية الشعبية القديمة والمعاصرة • اذ تناسى كثير من الباحثين القيمة الكبيرة والاسلوب العملى الرائع الذى يتميز به كتاب الجراحة (أو بردية الجراحة) التى ترجع الى الدولة الفرعونية القديمة ، أى الى أكثر من ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد • من أجل هذا نحاول أن تكون معالجتنا للوصفات الطبية متوازنة بين الجانبين ، فلا نتحيز لجانب على حساب الآخر(٢) •

---

(٢) تتناول هذه البردية تشخيص وعلاج ٤٨ عملية جراحية مما كان يجريه الاطباء المصريون القدماء • ومن الجدير بالذكر أن البردية لم تصف الاسلوب السحرى فى العلاج الا فى عملية واحدة فقط من بين هذا العدد الكبير • الامر=

اذا وضعنا المشكلة هكذا فى وضعها الصحيح لاستطعنا أن نقول مع فوجلين أن تاريخ الطب الشعبى فى العالم ليس الا تاريخ الطب نفسه • اذ أن هذا التاريخ يمثل سلسلة طويلة من المحاولة والخطأ ، بدأت مع فجر الانسانية ، ولم يكتب فصل الختام فيها بعد • فسيظل الانسان يجاهد من أجل تحسين مستوى الرعاية الطبية ، وستظل تواجهه أمراض جديدة كان غافلا عنها فيما مضى ، أو أنها خلقت خلقا جديدا بفعل تغير وتحول الظروف البيئية والاجتماعية المحيطة بالانسان •

ولسنا هنا بصدد استعراض تاريخ الطب فى العالم كله ، فهذه مهمة تقصر عنها رسالة هذا الفصل • ولكننا نؤكد أن التراث الطبى المعاصر — خاصة الاوربى منه — ليس كما يزعم أغلب الكتاب تطويرا لتراث الاغريق فى هذا الميدان • وانما معروف لكل منصف أن العرب قد تولوا نقل التراث الطبى الاغريقى الى العربية وصححوه وأضافوا عليه وطوروه • ولا يمكن أن تقاس الثروة الطبية العربية التى ترجمت فيما بعد الى اللاتينية (وكانت فيما بعد أساس التقدم الطبى فى أوربا المعاصرة) بما أخذه العرب عن الاغريق • مما يؤكد دون أدنى تحيز عظمة الانجاز العربى فى ميدان الطب ، وأنه بأى مقياس اضافة بارزة الى التراث العالمى فى هذا الميدان •

الا أن هناك بصفة عامة بعض النظريات الطبية العلاجية التى تمثل تراثا مشتركا بين الشعوب المختلفة ، وقد ساهم كل شعب بدوره فى اثرائها وتدعيمها وتطويرها • نذكر من تلك النظريات الطبية فى العلاج : نظرية تناغم الاجرام السماوية التى قدمها بيتا غوراس قبل ميلاد أبوقراط بنحو مائة عام (أى فى الفترة من ٥٥٠ الى ٤٥٠ قبل الميلاد تقريبا) • كما

= الذى يدلنا دلالة واضحة على ثراء التراث الطبى التقليدى منذ هذا التاريخ البعيد .

انظر ، فونك ، قاموس Dictionary of Folklore ، مادة طب ، ص ٦٩٨ وما بعدها، خاصة ص ٦٩٩ .

قدم بيتا غوراس نظرية الاعداد التى أثرت على كل من جاءوا بعده من عظماء الاطباء الاغريق • فقد صبغت تلك النظرية بشكل واضح نظرية أبو قراط عن « الايام الحرجة » • كما طبقها جالينوس بعد ذلك التاريخ بحوالى سبعة قرون (القرن الثانى بعد الميلاد) على كل ميدان من ميادين الطب •

وتعاقبت بعد ذلك اسهامات الفلاسفة والمفكرين الاغريق فى ميادين العلاج الطبى المختلفة ، بحيث لخصت فى ذروة تقدم الحضارة الاغريقية خلاصة التقدم الانسانى فى هذا المجال • الى حد أن كتابات جالينوس بلغت مرتبة التقديس طوال عدة قرون بعد موته • والى العرب يرجع الفضل كما أشرت فى استمرار هذا التراث وتطويره •

ومن النظريات البارزة فى هذا الميدان أيضا مدرسة التنجيم ، التى تؤكد على دور الكواكب والنجوم والمنازل القمرية (والبروج) فى انتشار وحدة أمراض معينة ، وعلى فاعلية النباتات ، والاحجار الكريمة وغيرها من المواد المستخدمة فى العلاج •

وهناك عديد من الشواهد على تلك النظريات ترجع الى الكلدانيين وغيرهم ، وظلت تتناقلها الشعوب وتطورها على مدى آلاف السنين • ولعل نظرية العلامات doctrine of signatures كانت من أبرز النظريات وأقواها تأثيرا على الممارسة الطبية ، بشكل يفوق حتى تأثير مدرسة التنجيم •

وترى نظرية العلامات أن جميع العناصر الطبيعية (كالنباتات والحيوانات وأعضاء الحيوانات المختلفة ، والاحجار ••• الخ) تحمل علامة أو « اشارة » معينة تدل على الحاجة الانسانية أو الوظيفة التى يمكن أن يستخدم فيها هذا العنصر لخدمة الانسان • وبصرف النظر عما اذا كانت نظرية العلامات هذه قد نشأت فى مصر أو فى بابل ، فان المؤكد على أى حال أن تأثيرها ظل واضحا وقويا حتى القرن السابع عشر

الميلادى ، وظلت الكتب الشعبية والطبية والمعتقدات الدائرة فى عقول الناس تؤمن بها وتتمسك بتطبيقاتها ، وتحكى القصص عن درجة صحتها ومدى فاعليتها •

ونقرأ فى أحد الكتب الشعبية التى ألفها أحد الاوربيين عن الاعشاب أن الله قد خلق كل عشب منها على هيئة خاصة ، كما خص كلا منها بعلامة معينة ليستدل منها على الفائدة الطبية الكامنة فيها(٣) •

وهناك مئات بل وآلاف النماذج التى تؤكد صدق هذه النظرية ومئات الشواهد الواقعية التى تدل على شيوعها بين الناس حتى مطالع العصور الحديثة :

ـ فجوزة الطيب قد خلقت على هيئة المخ •

ـ وزهرة نبات الخشخاش (الافيون) فى قاعدتها تشبه وضع (ترسبات) stling الدم فى ذات الجنب ، ومن ثم فان هذا النبات ممتاز فى علاج مرض ذات الجنب •

ـ كما أن نبات الخشخاش كان يوصف لعلاج الامراض العقلية لان ثمرته تتخذ هيئة الرأس •

ـ والورود الحمراء توصف لعلاج الدم وتنقيته •

ـ وكان الآشوريون يستخدمون نبات البينج benbane لعلاج آلام الأسنان ، حقيقة أن ذلك بسبب خصائصه المخدرة ولا شك ، ولكن تبرير ذلك فى رأى أصحاب نظرية العلامات هو أن الجزء المحتوى على البذور يتخذ هيئة الفك •

---

(3) Cf. Wm. Coles; Art of Simpling; 1956; quoted by E. Voegeline; art. Medicine in Funk Dictionary of Folklore; op. cit; p. 699.

ـ كذلك النباتات المنقطة تستخدم لعلاج البقع فى الجسم •

ـ والنباتات الصمغية توصف لعلاج القروح الصديدية •

ـ أما النباتات غير المزهرة (كالخنشار ـ أو السرخس والخس ، والعرعر) فتؤدى ـ طبقا لهذه النظرية ـ الى العقم •

ـ ولكن النباتات الكثيرة البذور تؤدى الى علاج العقم •

ـ وينصح الاطباء بتناول أى من الاعشاب الثلاثية الاوراق (لانها على شكل القلب) لعلاج أمراض القلب المختلفة •

ـ والزعفران (وهـو ذو لون أصـفر برتقالى) يوصف لعـلاج الصفراء •

وكما تطورت النظريات العلاجية كذلك تطورت الممارسـات الطبية وأساليب اعداد الوصفات • فبعد الوصفات التى كان يستخدم فيها عشب أو عنصر واحد لعلاج مرض معين ، تطور الامر بحيث وصـل المطببون الشعبيون الى الوصفات المعقدة التى تضم عديدا من الاعشاب ، والعقاقير، وأحيانا السموم • مما يتطلب بطبيعة الحال التزام الدقة الى حد بعيـد ووجود قدر من التخصص فى تقديم الوصفات واعدادها •